الإسلام بين الوحدة والتعدد

هل نحن جميعا مسلمون ، من داكار إلى جاكرطا ؟ أم لكل شعب إسلامه ولكل بلد رؤيته؟

وهل نحن مسلمون على نمط واحد ، منذ القرن السادس الميلادي ، إلى القرن الحادي والعشرين ، أم لكل عصر إسلامه ولكل زمن تأويله؟

هل نحن أمة إسلامية ؟ أم أمم إسلامية ؟ أم أمم وشعوب وكفى؟

وهل الإسلام شيئ واحد محدد وموحد ؟ أم هو أشكال وألوان لا يجمعها سوى الإسم ؟

قبل أكثر من عشرين سنة ، حضرت ـ بمدينة القصر الكبير ـ مجلسا للعلامة الشيخ عبد الله بن الصديق رحمة الله عليه . وكانت الأسئلة المتعطشة تنهال على الشيخ ، وكان أكثرها أسئلةً فقهية . وكنت أنا سعيداً بالإجابات المستفيضة لشيخنا الجليل ، وخاصة حينما كان يعرج بها نحو ما يسميه المالكية « الخلافَ العالي »[1] ، فيقول مثلا : هذه المسألة يجيزها الحنفية

---

(١) هو ما يسمى اليوم بالفقه المقارن .

بدليل كذا ، وهي محرمة عند الظاهرية اعتمادا على كذا ، وأما الجمهور ، فقد فرقوا بين حالة كذا وكذا ...

وبينما كان مجلسنا العلمي يمضي على هذا المنوال ، الشيق بالنسبة إلي ، إذا بالحاج قاسم السوسي ـ تاجر المواد الغذائية بالجملة ـ ينتفض ويصيح : آسيدي عبد الله ، أعطنا ماركة واحدة فقط.

وها نحن اليوم نتساءل ونناقش ما إن كان الإسلام « ماركة » واحدة ، أو « ماركات » متعددة ؟ وهل نحن نريد جوابا على مذهب العالم المفتي ؟ أو على مذهب التاجر المستفتي؟

لنبدأ القضية من أصلها :

لا خلاف بين العلماء أن الإسلام الذي أنزله الله تعالى واحد ، ليس فقط ما أنزله على خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ فحسب ، بل كل ما أنزله على سائر أنبيائه ، فهو دين واحد ، وإسلام واحد ، كما في نقرأ في هذه الآيات الكريمات ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ

إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ **قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا **وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٦)﴾ [١]،

وكما جاء في الحديث الشريف : (أنا أَوْلى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لِعَلاتٍ [٢]، أمهاتهم شتى ، **ودينهم واحد**) [٣].

قلعة الوحدة والثبات

وهذه القلعة عمادها أن الدين واحد: في منبعه ومَصَبه ، في

(١) سورة البقرة/ ١٢٧-١٣٦.

(٢) العلات ، بفتح العين وتشديد اللام المفتوحة : الزوجات الضرائر، ومعنى (إخوة لعلات) : إخوة من الأب ، وأمهاتهم مختلفات .

(٣) صحيح البخارى ١٢/ ١٥٣.

عقائده ومقاصده، في أركانه وركائزه، كما قال الله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وفي بيان مضمون هذا الدين الواحد، الذي أمر الله جميع المرسلين بإقامته وعدم التفرق فيه، يقول الإمام القاضي أبو بكر بن العربي (الإشبيلي): «المعنى: ووصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والتزلفُ بما يَرُد القلب والجارحة إليه، والصدقُ، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والإذايةِ للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوانات كيفما كان،[1] واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات.. فهذا كله شُرِعَ ديناً واحداً وملة متحدة، لم يختلف على ألْسِنة الأنبياء»[2].

فبهذا المعنى اعتُبر أتباع الرسل كلهم أتباعَ دين واحد،

(١) أي: كيفما كان نوع الاعتداء.

(٢) أحكام القرآن ٤ / ٨٩ ـ ٩٠.

واعتبـروا أمـة واحـدة ، هـي المقـصودة في قولـه تعـالى﴿ إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء/ ٩٢]، وقولـه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون/ ٥١، ٥٢] .

وإذا كـان هـذا هـو شـأن كافـة الرسـل وأتبـاعهم ، فهـو ـ لا شك ـ شأن الرسالة الواحـدة وأتباعهـا . فهـم ـ مـن بـاب أولى وأحرى ـ أصحاب إسلام واحد وأبناء أمة واحدة.

فهـا هـم المسلمون ـ هـذه الأيـام ـ يـصومون صـياما واحـدا متطابقا ، وفي وقت واحـد متزامن ، حتـى لـو تفـاوت بعـضهم بيوم أو يومين .

وها هم يحجون في زمن واحـد ومكـان واحـد ، وبمناسـك واحدة ، مع بعض الفروق الطفيفة بين هذا وذاك .

وهـا هـم يَـصْطفون ويُـصَلون ، في أوقـات واحـدة وبقبلـة واحدة ، بركوع واحـد وسـجود واحـد ، بقـرآن واحـد وأذكـار واحدة...

وها هم متفقون على كتاب واحد ، آية آية ، وكلمة كلمة .

ستة آلاف ونَيف من الآيـات القرآنيـة ، ونحـو ضِـعفها مـن

الأحاديث النبوية المتفق على صحتها ، هي المصدر الموحد للمسلمين كافة ، في عقائدهم وعباداتهم ، وقِيَمهم وأخلاقهم ، وحلالهم وحرامهم ...

ومهما تكن الاختلافات والتأويلات والاجتهادات ، فإن هناك آلافاً من المعاني والأحكام، ومن المبادئ والقواعد ، المتفق عليها بين جميع المسلمين ، وفي جميع العصور.

مساحة التنوع والاختلاف

وبجانب هذه القلعة الراسخة الموحدة للمسلمين في كل زمان ومكان ومذهب ، تبقى هنالك مساحةٌ واسعة للاختلاف والتنوع ، واستيعاب كل الفروق والحالات المختلفة ، سواء الكائنة أو الممكنة.

وهكذا فقد اتسع وعاء الإسلام والشريعة الإسلامية لاختلاف الأنصار والمهاجرين ، واختلاف الصحابة عموما . واتسع لاختلافات العرب والعجم . واتسع لتنوعات شعوب كاملة ، ذات لغات وثقافات وحضارات متنوعة . واتسع للتدين الفقهي والتدين الصوفي ، واتسع لتوجهات فكرية وفلسفية ذات مشارب شتى . واتسع للمذاهب الكلامية والفقهية المعروفة .

ورغم إجماع الفقهاء، على أنه لا تجوز البيعة لخليفتين اثنين في وقت واحد، بناء على حديث: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخِرَ منهما)[(١)]، فإنهم - مع ذلك - اعترفوا بالأمر الواقع المتعدد، وتعاملوا معه ونظروا له... قال النووي: « واتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يُعقد لخليفتين في عصر واحد، سواء اتسعت دار الإسلام أم لا، وقال إمام الحرمين في كتابه (الإرشاد): قال أصحابنا: لا يجوز عقدها لشخصين، قال: **وعندي أنه لا يجوز عقدها لاثنين في صقع واحد**، وهذا مجمع عليه. قال: **فإن بَعُد ما بين الإمامين، وتخللت بينهما شسوع، فللاحتمال فيه مجال**»[(٢)].

ولم تكن هذه الاختلافات - دائما - مفيدة وإيجابية أو مشروعة أو مقبولة، ولكنها على كل حال كانت - دائما - تجد مكانها وتأخذ نصيبها، على مسؤولية أصحابها، وكل ذلك تحت مظلة الإسلام وفي رحابه.

في زمن مبكر، حاول الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أن يفرض على الأمة كلها مذهبا واحدا، هو مذهب الإمام مالك

(١) شرح النووي على مسلم ٦ / ٣٢٦، والقتل هنا يكون إذا أصر على شق الصف وإحداث الفتنة، ولم يتراجع.

(٢) شرح النووي على مسلم ٦ / ٣١٦ .

وأهل المدينة ، وكتابا واحدا ، هو موطأ الإمام مالك . فدعا الإمامَ وخاطبه بهذا الأمر ، وقال له : "لئن بقيتُ لأكتبن كتابك بماء الذهب، وفي رواية كما تكتب المصاحف ، ثم أعلقها في الكعبة وأحمل الناس عليها...

وقال له : اجعل العلم ـ يا أبا عبد الله ـ علماً واحداً...

فقال الإمام الحكيم ، مالك بن أنس: يا أمير المؤمنين لا تفعل ؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث وروايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ودالوا له ، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم.

فقال: لو طاوعتني على ذلك لأمرت به...»[١].

وهذا الموقف الشهم النبيل للإمام مالك رضي الله عنه ، سبق مثله من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، حينما قالوا له : « لو جمعت الناس على شيء. فقال : ما يسرني أنهم[٢] لم يختلفوا . ثم كتب إلى الآفاق وإلى الأمصار : ليقض كل قوم

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، للقاضي عياض١/ ٦٠

(٢) يقصد الصحابة ، رضي الله عنهم .

بما اجتمع عليه فقهاؤهم »[(١)] .

وكان يقول : « ما يسرني لو أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا ، لأنه لو لم يختلفوا لم تكن رخصة ».

الموحدون وتوحيد الخلافات؟

في القرن السادس الهجري ، لما استتب الأمر لدولة الموحدين (ذات التوجه الظاهري في بدايتها) ، على أنقاض دولة المرابطين (دولة الفقهاء المالكية) ، عَزَم الحكام الجدد على محو المذهب المالكي وخلافاته الفقهية من المغرب ، وتوحيدِ الناس - في تقديرهم - على الكتاب والسنة دون سواهما ...

وقد حكى الفقيه المالكي ، الحافظ أبو بكر بن الجد طَرَفاً من ذلك ، فقال: « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب ، أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لي : يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أُحدثت في دين الله . أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ؟! فأي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحتُ أُبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي - وقطع كلامي - : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود ،

(١) سنن الدارمي ٢ / ١٩٤.

وكان عن يمينه، أو السيف»[١].

ولكن السيف لا يوحد العقول ولا يغير الأفكار، فلقد فشلت هذه المحاولة واستمر الفقه والاختلاف الفقهي، على الرغم من إحراق الموحدين آلاف الكتب الفقهية في فاس وغيرها.

*****

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، للمراكشي ١/ ٨١.